بسم الله الرحمن الرحيم

الاثنين 19/8/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (18)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك.. وبعد:

فنحن في تفسير بعض آيات من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 51 – 54].

مضى معنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

﴿أَوْلِيَاءَ﴾.

أصل الولاية في اللغة: النصرة والمعونة والقرب.

فكان من أشقى الناس رجل يترك مُوَالاة الله عز وجل ليوالي الشيطان وذريته، يترك طلب المدد والعون من الله ليطلبه من الشيطان فالله يقول بعد ذلك:

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾.

فإذا لم يكونوا شهوداً عند خلق السموات والأرض فكيف تتخذونهم أولياء من دوني؟!

ألا ترون إلى هذه السماء وما حوت، وإلى هذه الأرض وما ضَمَّت، ألا تنظرون في أنفسكم؟! فالله هو من خلقكم وخلق السموات والأرض فَحَرِيٌّ أن لا يعبد غيره.

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

ما كان لله أن يستعين بمضل يعينني ويناصرني ويساعدني، وفي هذه الخاتمة وقفة مهمة:

فلو أن إنساناً اتخذ مضلاً عوناً فقد خالف رب العالمين، فالله يقول: ﴿ وَمَا كُنتُ ﴾، وليست من عادتي، وليس لي، وليس مني أن أتخذ المضلين أعواناً وأنصاراً فمن باب أولى أن تحذر أن يكون أعوانك المضلين.

فلو أن أحداً منا اتخذ المضلين عضداً وعوناً ومؤيداً وصاحباً وناصراً وجالساً ومؤانساً فليس من الله في شيء.

هناك فرق بين الضال والمضل:

الضال: هو الذي تاه عن الطريق فلا يعرف صوابه من خطئه ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: 6-7].

المضل: هو الذي صار زعيماً في إضلال الناس، وقائداً في جلب الناس، وإبعادهم عن درب الله تعالى، وصار علامة على الفجور والفسق والمجون والكفر.

احذر أن تتخذ مضلاً عضداً؛ لأن هذا المضل رجل بارز ربه بالخصومة، وبارز رب العالمين بأخذ العباد عن طريق الهداية، فالله يهدي إلى الصراط المستقيم، وهذا المضل يأخذهم عن الصراط المستقيم ليرميهم في غياهب السبل التي تتفرق بهم عن سبيل ربهم.

فلو أن إنساناً جمع من الخيرات الكثيرة، وصام النهار، وقام الليل، ثم قام ليناصر هذا المضل والأفاك الذي يسحب الناس عن طريق الخير والهدى، فماذا سيكون حاله بعد أن ناصر هذا المضل؟

أدق أمر في طريق وصولك إلى الله هو أن ترقب أصحابك وجلساءك وأعوانك، ومن تحب ومن توالي، ومن تناصر، ومن تعاضد، ومن تساعد.

إن كلمة السر في صلاح الصالحين وفساد الفاسدين هو الصاحب، فاحذر أن توالي وتناصر وتقترب، وأن يعلق قلبك في واحد من المضلين.

هذا القلب مَلِكٌ وهذه الأعضاء حراسه، وإنما يُدخل على الملك من طريق حراسه، فاحذر أن تشارك هؤلاء الحراس مع أحد المضلين فيدخل حب هذا المضل إلى قلبك.

عندما يحب شاب فتاة ذات مجون فسيبدأ ذلك بطريق النظر، ثم يسمح لنفسه أن يحدثها ثم يسمح لها بكلامها ثم بمصافحتها، ثم بمجالستها، فيكون بذلك قد أذن لهؤلاء الحراس بالجلوس إليها وسماعها والنظر إليها وبعد حين يقول: دخل حبها في قلبي ولا أستطيع العيش بدونها.

فانتبه أن تجالس وتنظر وتسمع وتخلو وتكون مع من هم من المضلين؛ لأنني أخاف عليك أن يعلق قلبك بمحبة واحد فيهم.

أحياناً تصحب صديقاً من المضلين ولعلك تموت وتحيى حتى تخرج محبته من قلبك وكل ذلك؛ لأنك أذنت لنفسك أن تجالسه وتستمع لحديثه والمزاح معه وتنظر إليه في معاصيه.

في أحد الأيام جاءني رجل -لا أشك بصلاحه وهو متزوج ولديه أولاد- ليشكو أن قلبه علق بمحبة امرأة وقال لي: صرت أصبح وأمسي ولا أستطيع أن يمر علي ليل أو نهار من دون أن أسمع صوتها، ثم تمادى به الأمر فلم يعد يستطيع أن يغيب عنها، ثم تمادى به الأمر فلم يستطع أن يأكل حتى يراها، فلما طلبها للزواج وأخبرها بأنه يحبها رفضت الزواج به فلما سمع ردها بقي أياماً خمسة لا يأكل، وحلف أنه سيموت جوعاً إلا إن رضيت به زوجاً.

فالذي جعل محبة الأغيار تدخل في قلبه هو إطلاق البصر أولاً، ثم إرسال السمع والاسترسال في الحديث والجلسات الطويلة.

الحب والكره ليسا بيدك لكن النظر وإطلاقه وعدمه بيدك، والمصافحة، والسمع، والكلام والجلوس بيدك، فاجتهدوا أن لا تجالسوا مضلاً؛ لأنني أخاف عليكم أن يدخل حب المضلين إلى قلوبكم.

قد تعجب كيف لإنسان أن يناصر مضلاً وأن يذهب فِدَىً لمضل؟! أقول: هذا الأمر له مقدمات فلا تسمح لنفسك أن تجالس مضلاً وتسترسل في مجالسته كي لا تصل لهذه المرحلة.

قد تضطر أحياناً لمجالسة مضلٍّ بحكم الحياة والعمل، فجالسه ولكن لا تسمح لنفسك في خارج الضرورة وقضاء الحاجة أن تكون مع المضلين، وإن استطعت أن تكون مع المصلحين والمؤمنين وأولياء الله تعالى عمرَك فافعل.

المراد أن تجتهدوا ما استطعتم لتكونوا مع أولياء الرحمن ولا تكونوا مع أولياء الشيطان؛ لأن المرء يحشر مع من أحب، ولأن المرء يجمع في الآخرة مع من كثر اجتماعه معهم في الدنيا.

أحد الإخوان كان يحضر في درس شيخنا الشيخ أحمد كفتارو -عليه رحمات الله- وقد كنت ألقاه دائماً في الصفوف الأولى، ثم مات.

لقيت ابنه بعد أسبوعين من موته فقال: رأت أختي أبي في المنام يتوضأ فسألته: ماذا تفعل؟! فقال: أتتوضأ، فقالت: ألست بميت؟! فقال: بلى.. لكننا نتوضأ؛ لأن من لازم على مجالس العلم في الدنيا يستأذن رب العالمين لتنزل روحه إلى الدرس في نفس الوقت الذي كان يقام فيه، فقالت: ماذا جرى معك بعد موتك؟ فقال: ما أن أنزلني أرحامي والشيوخ إلى القبر حتى رأيت في آخر القبر سيدن محمداً صلى الله عليه وسلم، وسيدنا أبو بكر، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وسيدنا علي، فذهبت وجلست معهم!

احرصوا ما استطعتم أن تكونوا مع الصالحين ومع أهل الخير والهداية؛ لأنك ستكون معهم في الآخرة، بشرط أن يعلق قلبك بهم، وتكثر مجالستهم وتجتنب ما استطعت أن تكون مع أهل الضلال، وإذا وجد أحدنا نفسه معهم فليهجره ولو كان أقرب المقربين إليك ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47].

ترك سيدنا لوط؛ زوجته لأنها كانت زعيمة في الإضلال.

آسية بنت مزاحم زوجة فرعون طلبت النجاة من زوجها ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11].

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ .

أي ادعوا الذين عَبدوا مع الله تعالى غيره من بشر أو حجر أو وثن أو قمر وشجر.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ .

قال العلماء: فلم يجيبوهم إلى نُصرِهم، ولم يكفوا عنهم شيئاً، وجعل الله بينهم وبين من أشركوا مع الله حاجزاً وهو واد في جهنم اسمه موبق.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ .

انكشف أن من أشرك مع الله لم يستجب لهم شركاؤهم فعلموا أنهم قد أجرموا وأيقنوا أن مصيرهم إلى النار.

المواقعة: هي ملابسة الشيء بشدة.

وقد جاء بقراءة عن علقمة: ﴿فظنوا أنهم ملافُّوها﴾ أي مجتمعون فيها، واللفف: الجمع.

سمى الله تعالى المشركين مجرمين لكن الحقيقة أن كل من انبعث في المعاصي هو مجرم.

كل منا من الممكن أن تزل قدمه فيقع في المعصية، لكن هناك من ينبعث انبعاثاً في المعصية ويفجر في مخالفة أوامر الله تعالى.

كلنا من الممكن أن يخطئ فإذا زلت قدم أحدنا فليقم مباشرة وإياك أن تكون منبعثاً في المعصية مجرماً.

المجرم: هو من ينبعث في المعاصي انبعاثاً وينطلق إليها انطلاقاً ويحافظ عليها محافظة.

يغفر الله زلة القدم وقد جعل الله لنا رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما حتى إذا زلت قدم العبد فإن الله سيعود ليخرجه من هذا الزلل.

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ .

أي مهرباً لإحاطتها بهم من كل جانب.

وقيل: لم يجدوا عنها معدناً ينصرفون إليه.

وقيل: لم يجدوا عنها ملجأ يلتجئون إليه.

العفو اسم من أسماء الله تعالى، وكذلك الغفار فما الفرق بين العفو والمغفرة؟

قال العلماء: **المغفرة**: هي الستر فالذنب موجود غير أن الله يستره فلا يفضحك فيه في الدنيا ولا يحاسبك عليه في الآخرة.

العفو: هو المحو والإزالة بالكلية، وبالتالي يكون العفو أبلغ من المغفرة.

وقيل: العفو منه سبحانه وتعالى إزالة آثار الذنوب بالكلية فيمحوها من ديوان الكرام الكاتبين ولا يحاسبك بها يوم القيامة، بل إنه جل جلاله يثبت مكان كل سيئة حسنة.

أفضل دعاء ندعوه في ليلة القدر ما علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: **يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ**: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**» [الترمذي].

الآن في رمضان وبعد ليلة القدر وقد ابيضت صحائفك ونور الله لك سريرتك فاحرص أن لا تنبعث في المعاصي والفجور بعد أن ابيضت الصحيفة.

إذا وقعت في زلل فقم، وإذا أخطأت خطيئة فاستغفر مباشرة، وإذا زلت قدمك زلة فارجع ولا تبق أرضاً؛ لأنك ما استغرقت وتبت واستسمحت من ربك فستبقي الصحيفة بيضاء، لكن إذا

فعل أحدهم الذنب بعد الذنب فسترجع الصحيفة سوداء ونخاف أن يموت أحدنا وصحيفته سوداء منبعث في المعاصي والفجور.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ .

من قرأ القرآن وجد ترغيباً أو ترهيباً أو قصة أو مثلاً أو أن الله يدعو بالترغيب أو الترهيب أو مع الجماعة أو منفرداً.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ .

هذه صفة الإنسان غير المربى، أما المؤمن الذي رباه الذكر وأدبته مجالس العلم فصفتهم هي ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284]، **قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا:** ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]، **فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] **قَالَ:** «نَعَمْ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286] **قَالَ:** «نَعَمْ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286] **قَالَ:** «نَعَمْ» ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]، **قَالَ:** «نَعَمْ» [مسلم].

كسب: هو ما تجنيه بقلبك أو جوارحك.

اكتسب: هو ما تجنيه بجوارحك من دون القلب.

فإذا كان لك شيخ ومجلس علم ترجع إليه فسيرقق قلبك للامتثال بأوامر الله، أما من لم يكن لديه هذه المرجعية فسيقع في موقع قد يوصله إلى الكفر.

فيقول الله بما معناه: كل ما يعمله عبادي الصالحون بجوارحهم أو قلوبهم من الخير فسأكافؤهم عليه، أما حديث النفس إذا بقي داخل النفس ولم يخرج على الملأ ولم تصر عليه فلن تحاسب عليه.

فأعطانا الله أجر النوايا الحسنة ولم يحاسبنا على النوايا الشريرة أو السيئة ولأجل هذا كان الإنسان غير المربى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54] أما الإنسان الذي رباه الإيمان والذكر ومجالس العلم فيقول سمعنا وأطعنا.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»** [مسلم].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.